

افتتاحية العدد:

النساء شقائق الرجال



بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ سليم عبد اللطيف يوسف

رئيس المنتدى العلمي البقاعي ومؤلف عدد من الكتب التاريخية والدينية

Salimyoussef1@hotmail.com

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن يهد الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد

إن مقولة الجندي المجهول ليست حكراً على الرجال فقط، بل كان للنسوة في الإسلام دورهن في هذا المجال لا يقل أهمية عن دور الرجال، ويكفي أن يصور هذه الميزة قول النبي صلى الله عليه وسلم (النساء شقائق الرجال) لكي ندرك حقيقة المقام الذي وضعه الرسول المعلم للمرأة، ومن ثم نقوم بتسليط الضوء على العالمات المنجبات في الإسلام ، وقد كان منهن من كن شيخات للأئمة الكبار من الفقهاء والمؤرخين والمحدثين. ونمهد لذلك بقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم)(آل عمران - 18)، فالله سبحانه و تعالى بدأ بنفسه وثنى بالملائكة وختم بأولي العلم.

يقول الإمام القرطبي: في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لما قرنهم الله تعالى باسمه مع الملائكة، وإنه لأرفع وسام يعطى لأهل العلم وهذه خصوصية ولا أسمى منها. ومن هنا جاء قول المصطفى صلى الله عليه وسلم (إن العلماء ورثة الأنبياء) وقوله أيضاً (العلماء أمناء الله على خلقه).

يقول حبر الأمة عبد الله بن عباس: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة. والله تعالى يقول: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة - 11)، كما يقول أيضاً: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر - 9).

بعد هذا التمهيد نقول: هناك عالقات شغلن الناس، وقدمن للإنسانية والفكر أروع الأمثلة، وما زلن يتركن بصمات مباركات على المجتمع في شتى المجالات، ومن هؤلاء الأخت الفاضلة الدكتورة هيفاء سليمان الإمام التي وامت بنجاح بين أدوار شريفة شتى، فهي أم و زوجة مثقفة، ورئيسة تحرير مجلة (وميض الفكر المحكمة). وهذا يعني أنها تقف على رأس ميزان دقيق لتصريف الكلمة ونقدها واختيار الأفضل منها من بين حملة أقلام يسيل منها الجمال والحكمة، هذه المجلة التي تزداد وميضاً وألقاً بفضل سهر القائمين عليها لخدمة العلم، وبذلك تكمل دور العالقات المحدثات الحنبليات وما أكثرهن في بعلبك البقاعية عاصمة الفكر والمفكرين. والدكتورة هيفاء كانت وفيهً للدور الذي خصها به الله تعالى، كأنثى واعية ومثقفة يشكل جنسها نصف المجتمع ويشارك في بنائه، كيف لا وقد كرمهن الله فأنزل باسمهن سورة النساء، وهي سورة كاملة تتلى إلى يوم الدين. في حين لم تنزل سور باسم الرجال، وإنه لشرف عظيم للمرأة أن تولى الله تعالى تكريمها، ورفع شأنها بعد أن كانت تؤاد حياة قبل الإسلام، و ينظر لها نظرة دونية لا تليق بدورها الرائد. والمرأة صانعة الرجال التي تهز المهديين والعالم بيسارها. وبعض منهن صرن شيخات لكبار الأئمة والفقهاء والمحدثين. يقول الداعية المفكر الإسلامي الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: قد كنت أظن النساء آخر من يشغل بهذه العلوم - علوم السنة النبوية - بله أن يبرزن فيها، ويبلغن مرتبة الإمامة حتى قرأت رسالة (السنة النبوية في القرن السادس الهجري) للدكتور محمد إبراهيم الديك،

فوجدت عالَمات بالسُّنة لا يشقُّ لهنَّ غبار ولسن نزرأً يسيراً، بل عشرات من العالَمات الثقات، والقرن السادس ليس من قرون الازدهار العلمي في تاريخنا العربي والإسلامي، بل هو من أواخر العصر العباسي الثاني عندما مالت شمس الدولة العباسية للغروب، ثم سقطت تحت براثن التتار في منتصف القرن السابع، و نَسأل من صنع هذا الرجحان الأدبي؟ من جعل الأمة المغلوبة تبقى سيدة الموقف وإن خسرت عسكرياً؟

ونجيب بالقول إنهم العلماء والدعاة والمربون!، وهؤلاء هم الجنود المجهولون الذين أنقذوا رسالة الإسلام عندما عبثت بمستقبلها السياسة، وهذه النماذج تكررت في العالم أيضاً، فإن الشعب الألماني حفظ مستقبله واستعاده بعدما أضاعه هتلر، وكذلك الشعب الياباني، فالمهم أن تكون أعمدة الحضارة في تأريخ الأمة قائمة لا منهارة (محمد الغزالي - تراثنا الفكري - ص - 195 و ما بعدها)، ومن غير العلماء يمكن أن يقوم بهذا الدور الحضاري؟ هذا وإن ما ذكره الدكتور محمود إبراهيم الديك في رسالته المذكورة آنفاً، وما أشار إليه الداعية والمفكر الإسلامي محمد الغزالي في كتابه ما هو إلا غيض من فيض ، فالمكتبة الإسلامية تمتلئ بكتب العلماء من الجنسين، ويكفي أن نذكر كتاب (تأريخ مدينة دمشق) للحافظ بن عساكر (ت-571هـجري-1175 ميلادي)، و هو في ثمانين مجلداً (طباعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - تحقيق محب الدين العمروي - 1995م)، وقد خص النساء بالمجلد 69 من موسوعته الحضارية هذه، وتبعه العالم المعاصر الدكتور محمد أكرم الندوي الذي جمع جهود المتقدمين في موسوعته النسائية (الوفاء بأسماء النساء) في 43 مجلداً، وهي من (إصدارات دار المناهج في مدينة جدّة - بتأريخ 1442 هجري - 2021 ميلادي) وهي تترجم لأكثر من عشرة آلاف عالمة محدّثة، وبعد ، فهذه هي المرأة التي تشكل نصف المجتمع، وهي تقاسم الرجل حياته وهي ريحانة عمره، ورفيقة دربه، ومهبط نجواه، وتلك آية الله تعالى ومُنَّته ورحمته لقوم يتفكرون، ويكفي أن نشير إلى موقف المرأة زوجة النبي صلى الله عليه و سلم قبل البعثة عندما أصابه الروح لرؤية الروح الأمين جبريل أول عهده بروؤيته، فلم يجد وهو رسول الله وصفوته من خلقه إلا زوجته خديجة لتسرّي عنه، عندما قال لها: لقد خشيت على نفسي، وتجيبه زوجته الناضجة الواعية الحنون: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف ، وتعين على

نواب الحق. (د. علي محمد الصلابي - السيرة النبوية - ص - من 72 - 80). فكان موقف خديجة من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها ، فقد أدركت أن من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً، وهو يؤكد أن المرأة ليست بالخلق الضعيف، فإن من احتمل ما احتملته في ظلمات التاريخ من عنت الدهر، وعسف الأب، و صلف الزوج إلى وقر الحمل وألم المخاض، وسهد الأمومة ، راضية مطمئنة لا تكون ضعيفة، والمرأة ليست بالمخلوق الحقير، فإن من وكله الله ببناء الكون، وإنشاء الأمم لا يكون حقيراً، ألا إنما المرأة دعامة من دعامات الوجود ، وهو يظل ناهضاً مكيناً ما نهضت به الأمم ، فإن هي وهنت دونه وخذلته تهاوت أعمدته، وتصدعت جوانبه، والنبي صلى الله عليه و سلم يقول: (المرأة في حملها إلى وضعها إلى قضائها، كالمرباط في سبيل الله، فإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شهيد)(أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد - 4 - 305).